

الأديب المغمور
حسن أفندي العدل

د. محمد صابر عرب

لقد شهد القرن التاسع عشر ظاهرة العناية بالترجمة من الثقافة الفرنسية إلى العربية، وخصوصاً بعد أن نشر رفاعة الطهطاوي كتابه الشهير: "تخليص الإبريز في تلخيص باريز"، عام ١٨٣٤م. ولا أعتقد أن كتاباً آخر في أدب الرحلات قد حظي بهذا القدر من الاهتمام، فلقد تلقفه جمهور القراء بالبحث والدراسة، ولعل مصدر العناية به أنه قد نقل المجتمع الفرنسي إلى القارئ العربي؛ وخصوصاً في جوانبه الفكرية والاجتماعية، وكان بمثابة الدرس الأول الذي أتاح لقراء العربية أن يقفوا على سر تقدم الغرب وتخلف الشرق.

وأمام شهرة الطهطاوي والعناية الفائقة بكتابه فقد أغفلنا دون قصد كتابات أخرى على درجة كبيرة من الأهمية وخصوصاً في أدب الرحلات، لعل من أهمها رحلة "حسن أفندي توفيق" إلى ألمانيا وسويسرا، فلم يحظ الرجل ولا

رحلته باهتمام المؤرخين رغم أن ما كتبه يعد نموذجاً لأدب الرحلات، فقد سجل بكل دقة ملاحظاته ومشاهداته وانطباعاته بروح مرحة جذابة.

والشيخ حسن العدل ولد في الإسكندرية (١٨٦٢م) ودرس في الأزهر وحصل على أربع إجازات من أربعة من الشيوخ الكبار، ولم يكن قد تجاوز العشرين عاماً من عمره، ثم التحق بدار العلوم وقضى بها أربع سنوات، ثم اختارته وزارة المعارف المصرية عقب تخرجه مباشرة للسفر إلى ألمانيا معلماً للغة العربية وآدابها بجامعة برلين، لمدة خمس سنوات.

تعلم الألمانية في أقل من ستة أشهر، وحرص على أن يسجل كل مشاهداته السياسية والاجتماعية والتربوية في مجموعة من الكتب صدرت جميعها بالعربية خلال الثلاثة عقود الأخيرة من القرن التاسع عشر.

وعلى الرغم من الإغراءات التي قدمتها جامعة برلين لكي يستمر في العمل بها إلا أنه فضل العودة إلى بلاده ليقدم خبرته إلى وزارة المعارف المصرية التي كان يعمل فيها.

وفي عام ١٩٠٣م، وأثناء إقامة الدكتور "براون" في القاهرة - أستاذاً زائراً بكلية دار العلوم - لفت نظره شخصية حسن العدل وثقافته الرفيعة، لذا

عرض عليه العمل في جامعة كمبردج أستاذًا للغة العربية وآدابها وقبل الرجل أن يخوض هذه التجربة، وسافر إلى إنجلترا في أكتوبر ١٩٠٣م.

لم يكن حسن العدل مجرد معلم للغة العربية وآدابها، وإنما انخرط في المجتمع الإنجليزي، داعياً لقضايا وطنه محاضراً وفتياً للأقليات المسلمة من الهند والأسويين المقيمين في كمبردج، لذا فقد اختير عضواً في الجمعية الآسيوية الملكية استثناءً من القاعدة التي كانت تمنع عضوية الأجانب في هذه الجمعية.

لقد أدرك ناظر المعارف المصرية وقتئذ أهمية عودة حسن العدل إلى القاهرة مع نهاية العام الدراسي ١٩٠٤ لكي يشارك في برنامج تطوير التعليم الذي كان يحظى باهتمام الحكومة المصرية، وقد كتب الدكتور "براون" إلى "حسين فخري باشا" ناظر المعارف المصرية يرجوه أن يوافق على استمرار "حسن العدل" لأن الجامعة ستخسر عالماً وأستاذاً قديراً، لديه قدرات هائلة على اختراع أساليب مبتكرة في وسائل التعليم، إضافة إلى أخلاقه الرفيعة.

اللافت للنظر أن "كرومر" قد طلب من الشيخ "محمد عبده" أن يتوسط له عند ناظر المعارف لكي يوافق على استمرار "حسن العدل"، لكن الأقدار كانت أقوى من كل شيء، ففي ١٠ يونيو ١٩٠٤ تلقى ناظر المعارف رسالة من

الأستاذ "براون" ينعي فيها الشيخ "حسن العدل" الذي وافته المنية في ٣ يونيو وهو يؤدي عمله في الجامعة ولم يكن قد أكمل اثنين وأربعين عاماً.

ويشير "براون" في رسالته إلى الشيخ "محمد عبده" إلى أن الفقيد قد صلى عليه أصدقاؤه ومحبوه من المصريين والأتراك والأسويين، وقد عُسل وكُفن وفقاً للشريعة الإسلامية، وقد قرأ عليه القرآن "عبد الحق حامد" مستشار السفارة العثمانية في لندن.

لقد راحت الصحف المصرية والإنجليزية وقتئذ تنشر كثيراً من التفاصيل عن شخصية الفقيد وظروف وفاته، فبعد انتهاء عمله في الجامعة ركب دراجته عائداً إلى منزله، وقد شعر بخفقان في قلبه فعاد إلى الجامعة التي استدعت له الطبيب، لكن لم تمض أكثر من ساعة حتى قضى الفقيد نحبه.

لقد نعته الجامعة ببيان جاء فيه: "لقد اهتزت جوانب الجامعة من هول الصدمة، وحزن عليه كل من عرفه، وموته يعد خسارة للعلم والإنسانية".

لقد كتب "حسن العدل" كتابه المغمور تحت عنوان: "رحلة حسن أفندي توفيق"، ولعل مما يلفت النظر هذا التشابه بين مهمة الطهطاوي في باريس ومهمة حسن العدل في برلين وكمبردج، فالأول ذهب رائداً وموجهاً لطلاب البعثة المصرية ففاق الجميع عملاً وثقافة، وبقيت كتاباته بمثابة ومضة نور.

أما الشيخ "حسن توفيق العدل" فقد اختارته نظارة المعارف المصرية معلماً للغة العربية وآدابها في مدرسة برلين الشرقية، وقد أسند إليه الخديو توفيق إضافة إلى عمله مهمة القيام بالإشراف على طلاب البعثة التعليمية المصرية في برلين، ولم تختلف مهمته في كمبردج عن مهمته في برلين.

لكن اللافت للنظر أن الرجل لم يكتب بمهمته الرسمية؛ وإنما قدم خلال إقامته التي استغرقت خمس سنوات في ألمانيا (١٨٩٢ - ١٨٩٨) وعامان في إنجلترا (١٩٠٢-١٩٠٤) للمكتبة العربية نتاجاً علمياً رفيعاً من بينه: تاريخ آداب اللغة العربية، وقد كتب عنه الأستاذ "براون" باعتباره أول كتاب في تاريخ الأدب العربي، كما أعد كتاباً في التربية الرياضية (١٨٩٥م)، وآخر في التربية أسماء: "مرشد العائلات في تربية البنين والبنات"، وقد توجه بهذا الكتاب إلى شريحة معينة من البنين والبنات حتى سن البلوغ، وهو عمل علمي رائع يعد الأول من نوعه في المكتبة العربية، كما كتب كتاباً آخر نشرته نظارة المعارف عقب وفاته تحت عنوان: "سياسة الفحول في تثقيف العقول".

لعل أهم ما كتبه "حسن العدل" على الإطلاق هو: "رحلة حسن أفندي توفيق"، فقد كتب تجربته في ألمانيا وسويسرا، فكان دقيق الملاحظة، غزير المعرفة، اعتقاداً منه بأنه يؤدي واجباً وطنياً وثقافياً حينما يتيح لبني وطنه

ممن لم تتوفر لهم فرصة السفر إلى هذه البلاد أن يقفوا على الحياة في هذه البلاد، وقد اتسمت كتاباته بالدقة وقوة الملاحظة وخفة الظل والتركيز على الصورة بمعناها الواسع، وخصوصاً في مجال التعليم وحرية البحث ودقة العملية التعليمية، وإقبال الطلاب على الدراسة بطريقة مشوقة.

ولعله في كل ما كتب كان يجيب عن سؤال مازال مطروحاً حتى الآن:
لماذا تقدم الغرب وتخلف الشرق؟

د. محمد صابر عرب

رئيس الهيئة العامة لدار الكتب والوثائق
القومية المصرية

Email: chairman@darelkotob.gov.eg